الموضوع الثانى

عليك بتقوى الله

عن أبى ذر الغفارى رضى الله تعالى عنه قال: يا رسول الله أوصنى: فقال النبى ﷺ: «عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله».

فقال: زدنى يا رسول الله، فقال النبى العظيم ﷺ: «عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك فى الأرض و ذخرٌ لك فى السماء»

[رواه ابن حبان فى صحيحه فى حديث طويل].

* ما معنى ذر؟ الذر هو ما يخرجه النمل من جحوره من أتربةٍ وغبارٍ ورمالٍ صغيرة، الذين يعيشون فى البيئات الزراعية والبيئات الساحلية يشاهدون جحور النمل عبارة عن رمل صغير، أو أتربة صغيرة، أو حتى الذين يعيشون فى المدن فإن النمل يدخل بين البلاط فيخرج رملاً من تحته، وهذا الرمل أو هذا الغبار أو هذه الأتربة تسمى بالذر؛ لأنها شىء قليل لو نفخ فيه سيطير من نفخة واحدة.

* فسمى بأبى ذر؛ لأنه كان يرضى بالقليل، وامرأته - أيضاً - تسمى بأم ذر؛ لأنها مثله زاهدة ورعة تَحُضه على الرضا بالقليل من الله ﷻ، ولا تقول له: انظر إلى ما فى يد فلان، الناس كلها أحسن منك، أنت لست كمثلهم، فإنها أم ذر وهو أبو ذر؛ لأن كلاً منهما يرضى بما أعطاه الله تعالى حتى لو كان قليلاً .

ما الذى يجعل الناس ناقمين على الحياة؟

أحدهم يقول: أنا مشمئز، أنا لا أقدر على أعباء نفسى. لكثرة ما يأتى عليه من ضغوط العمل، يرى أحدهم أكبر منه، وآخر يلبس أحسن منه فيستشعر أنه لا يساوى شيئاً وهذا خطأ كبير جداً .

«عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله» .

أى الخوف من الله، عليك بخشية الله، الإخلاص لله، الإنابة لله، عليك بتقوى الله فإنها أساس الأمر، وعمود الأمر كله فى شىء واحد وهو الخوف من الله تعالى، فالذى يخاف من الله يستحيل أن يعصاه جل فى علاه، وهو يعلم أن الله تعالى ينظر إليه، الذى يخاف من الله عز وجل يستحيل أن يغش، يستحيل أن يكذب، يستحيل أن يخون أبدًا، ولكنه عندما يرى باباً من أبواب الخير لا يقول: كفىٰ سوف أستكمل غدا، لا ولكنه يتعلق به؛ يشتغل به؛ لأن هذا الباب قد لا يفتح لك بعد الآن، فمثلا لو كنت فى الشارع وقال لك رجل كبير فى السن: خذ بيدى، أنا أريد أن أذهب إلى المستشفى أو أريد أن أذهب إلى مجلس المدينة أو المحافظة أو البلدية، أمسكه من يده وأوصله؛ لأنه اختارك أنت، ونادى عليك أنت، فلا تتركه ربما يكون هذا اختبارًا من الله تعالى لك، اختباراً يريد به الله تعالى أن يرفع لك، وأن يرفع بك، وأن ينفع بك، وأن يفتح لك، فلا تصف له الطريق وتتركه، فهذا باب عظيم من أبواب التجارة مع الله، ولك به صدقة، وهو إغاثة الملهوف .

«عليك بتقوى الله فإنه رأس الأمر كله»، قال: زدنى يا رسول الله، ويبدو أنه ﷺ فى حاجة إلى المزيد، وكان أصحاب النبى الكريم ﷺ قد عرفوا أن وجودهم معه كان منحة وفرصة عظيمة من الله تعالى .

فإن الذى يقرأ القرآن يشعر أنه شبعان من الطعام والشراب، لكن فى الحقيقة لا يشبع المؤمن من خير أبدًا حتى يكون منتهاه الجنة، لا يشبع هنا أى يقرأ فى القرآن أو فى الأحاديث أو فى السير أو فى الفقه أو فى التاريخ الإسلامى أو فى الغزوات، لا يشبع ولا يَمَل؛ لأن علم الله تعالى ونور الله تعالى لا يُمَل منه أبدًا،

عليك بتقوى الله، فقال هذا الصحابى: زدنى يا رسول الله، فقال له النبى العظيم ﷺ: «عليك بتلاوة القرآن» .

هناك ناس لا يقدرون على حفظ القرآن الكريم، الحفظ موهبة، والذى لا يقدر على الحفظ أو ليس عنده موهبة الحفظ لا يحزن، وبعض الناس لا يقرءون، ولا يكتبون، يتاجر مع الله فى سورة الإخلاص ويقرؤها بكل ما يستطيع، يتاجر مع الله بسورة الفاتحة، يتاجر مع الله بسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

«فإنه نور لك فى الأرض وزخر لك فى السماء» .

الحديث فيه جمال، وجماله أنه قدم التقوى فقال: أوصنى، فقال: عليك بتقوى الله، وبعد أن ذكر له التقوى ذكره بالقرآن وكلمة «عليك» تعنى: إلزام، «فإنه نور» ما هذا الجمال؟ نور فى القلب، نور فى وجهك، نور فى سمعك.

ما العلاقة بين تقوى الله، وحفظ القرآن وتلاوته؟

نأتى لهذه الآية الكريمة التى ختمت بها سورة (ق) وكان يحبها رسول الله ﷺ، وكان يخطب بها على المنبر - صلوات الله عليه وسلامه -، فكل سورة فى القرآن لها نور متدفق، قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥] فذكِّر بالقرآن من يخشى وعيدى؛ لأن مَن لا يخاف الوعيد لا يُذَكَّر.

فربط الله تعالى بين القرآن وبين التقوى، فمن يتقِ ربه، يعلم أنه واقف بين يدى ربه، والذى يجلس فى مجالس الدنيا، مجالس اللهو، ويقول: فلان بنىٰ عمارة فى القاهرة ثم امتلك قرية سياحية فى كذا، وطلع على الساحل الشمالى والساحل الجنوبى، وعنده شاليه هنا وهنا ... وهكذا، الكلام فى حد ذاته دنيا، والدنيا من الدنو أى من الهبوط والنزول.

أما الكلام عن الصالحين، وعن الذين أحبوا الصالحين، وعن التذكرة بالقرآن الكريم فهذا هو الكلام الذى تنتعش به القلوب، يبعث فى الوجود نورًا وإقبالاً على الله تعالى .

ففى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩] إن الذين يقرءون القرآن، ويعملون به، وداوموا على الصلاة فى أوقاتها، وأنفقوا مما رزقناهم من أنواع النفقات الواجبة والمستحبة سراً وجهراً، هؤلاء يرجون بذلك تجارة لن تكسد ولن تهلك، ألا وهى رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه؛ ولذا يقال لحافظ القرآن: فتح الله له، ربنا يفتح عليه، ربنا يشرح صدره؛ لأنه أتم حفظ القرآن الكريم قبل أن يدخل المدرسة أو قبل أن يدخل المعهد الأزهرى... ما شاء الله، (ومن حفظ القرآن الكريم فى صغره فقد اختلط القرآن الكريم بلحمه ودمه)، ذكر هذا الحديث الإمام النووى فى كتابه.

فعوِّدوا أولادكم وعلموهم، وانصحوهم أن يحفظوا القرآن الكريم فى صِغَرِهم كى يختلط القرآن الكريم بلحومهم ودمائهم بل وعظامهم، من فاته القطار ولم يستطع أن يحفظه وهو صغير ولا أن يُحَفِّظَ أولاده وهو كبير، فهو يستطيع أن يدرك هذا الآن، عليك بقراءة القرآن «فإنه نور لك فى الأرض وزخر لك فى السماء».

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ هناك أطفال وشباب لو وزنوا بالذهب، لو أحضرت واحدا منهم ووضعته فى كفة، ووضعت فى الكفة الأخرى ذهباً ستجده أغلى من الذهب، لماذا؟

لأن نور الله تعالى فى قلبه؛ لأن الله تعالى استأمن قلبه على حفظ أسراره ونور الله لا يُهدى لعاص.

إذا كان هناك إنسان يحفظ القرآن الكريم، ويعمل به، ويخشى الله تعالى به، فهذا نور الله تعالى فى قلبه، وليس بالضرورة أن يتم حفظ القرآن الكريم كاملاً، وإنما يحفظ ما يستطيع ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [المزمل: ٢].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩ – ٣٠] ليوفيهم الله تعالى ثواب أعمالهم كاملاً غير منقوص، ويضاعف لهم الحسنات من فضله، إن الله غفور لسيئاتهم، شكور لحسناتهم، يثيبهم عليها الجزيل من الثواب.

اللهم حبب إلَيَّ الإيمان وزينه فى قلبى، وكره إلَيَّ الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنى من الراشدين (رب اغفر وارحم واعف وتكرم وتجاوز عما تعلم إنك تعلم ما لا نعلم، إنك أنت الله الأعز الأكرم) اللهم اختم بالخيرات آجالنا، وحقق بفضلك آمالنا، وسهل لبلوغ رضاك سُبلنا، وحَسِّن فى جميع الأحوال أعمالنا، يا منقذ الغرقى، يا منجى الهلكى، يا شاهد النجوى، يا منتهى كل شكوى، يا قديم الإحسان، يا دائم المعروف.